وكانت المسيحية المصرية عبارة عن ثورة وطنية دائمة ضد حكم الرومانيين والبيزنطيين (٣٠ق.م.ـ ٦٤٠ ميلادية)، وكادت احدى هذه الثورات تستولي على الاسكندرية وتقضي على حكم الرومانيين.

وفترة الولاة الأمويين (٦٥٨ ـ ٧٥٠)، شهدت ثورات فلاحية شاملة كادت احداها تقضي على جيش عبدالملك بن مروان. وفيما بين عامي ٨١٣ و٨٣٣، وكانت مصر، اثناء هذه الفترة، تحت حكم العباسيين، قامت ثورات فلاحية عديدة، واضطر الخليفة المأمون ان يحضر بنفسه الى مصر للاشراف على إخماد واحدة من اخطر تلك الثورات؛ اذ انها استمرت وحدها ثمانية اشهر.

وكانت هناك للمصريين ثورات ضد الفاطميين، وبخاصة في زمن المستنصر، وعلى الأخص حينما تكشف ان الدولة المركزية الفاطمية ليست بأفضل من دولة الاخشيديين الذين استعان المصريون بالفاطميين عليهم. وكذلك الدولة الأيوبية تهددتها اكثر من ثورة.

وهكذا، حتى حكم محمد علي وإلى نهاية حكم اسماعيل (١٨٠٥ ـ ١٨٧٩)؛ حيث يمكن عد حوالي خمس عشرة ثورة، او تمرداً، قام بها الفلاحون، بعضها كان هدفه المعلن هو اسقاط نظام محمد علي.

وتاريخ مصر الحديث (١٨٧٩ حتى ١٩٥٢) هو حلقات متتابعة لإنجاز الثورة الوطنية الديمقراطية بدءاً بالثورة العرابية، ومروراً بالنضال الوطني بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد، ثم ثورة ١٩١٩، وانتفاضة ١٩٣٥، وانتفاضات ١٩٤٦ و١٩٥٠، ثم ثورة ١٣ يوليو ١٩٥٢.

هذه الثورات والتمردات والانتفاضات العديدة المتكررة لم يكن دافعها تكوين نفسي نزق او نزوع متوارث للتمرد كما قد يبدو لمراقب عابر. وحينما ذهب الامبراطور ادريانوس الى مصر، عام ١٣٦م، ليشرف بنفسه على إخماد ثورة قام بها المصريون، كتب لقريبه سرقيانوس يقول: «لقد تقصيت احوال مصر يا عزيزي سرقيانوس، مصر التي كنت تشيد بها، فإذا بها بلاد طائشة، متقلبة، لا تكف عن المشاغبة، والشعب هنا في الاسكندرية يحتدم ثورة، سليط اللسان، شديد الغرور»[١٤]. وللسبب نفسه الذي رفض من أجله غابرييل باير نظرية «خنوع الفلاح المصري»، كسمة نفسية متوارثة، فإننا نرفض تفسير ادريانوس لثورة المصريين على اساس مزاجي. فأحكام ادريانوس هذه لا تعدو ان تكون حكماً ظالماً من امبراطور ظالم لا يريد ان يقر بظلم نظام حكمه، ضد شعب يثور على هذا الظلم. ولكن إذا لخصنا كلام ادريانوس، بصرف النظر عن احقاده، نرى أنه يقر بأنه كان امام شعب ثائر، غير هياب، معتد بنفسه، وهذه هي المعاني الحقيقية لعبارات الشتائم التي استخدمها الامبراطور حينما وصف الشعب بأنه سليط اللسان، شديد الغرور.

ولكننا نوافق، تماماً، جاك بيرك، في استنتاجه الذي توصل إليه بعد سنوات طويلة من دراسة مصر، حيث «اكتشفها» «بلداً يناضل لإعادة صنع نفسه بعد ماض من الجهود المحبطة»[١٥]. هذا تفسير علمي وواقعي؛ حيث ان الشعوب لا تثور إلا لإعادة صنع واقعها